

فراشات ملونة

أراك. تقتربُ منها منبهراً بضوئها المشع من عينيها، يشدُّكِ إليها. تراها تمتلكُ ذلك الجمال الإسطوري القديم؛ كأنها خرجت للتو من إحدى الحواديت التي أحببتها في طفولتك، يمتلككِ جمالها ويقبض على فؤادكِ حتى يكاد يعصركِ عصرًا. تشعر معها، وبها، أنك تستنشق الهواء النقي الذي كان يأتيكِ من الحقول الشاسعة عند الساقية الكبيرة. خلف الحقول هناك يجلسُ قرص الشمس ليستريح. تتذكر حين كنتما تطاردان الفراشات الملونة، أنت ويلي، حتى تغيب الشمس. ومن ثم تجريان والظلام يطاردكما حتى تختبئا في بيتكِ القديم. أراك. تحاولُ جمع الماضي المبعثر أمامكِ على الأرض. تجمع التفاصيل الصغيرة البالية المبللة. تنتظرُ ضحكتها حتى تذكركِ بزرقة صديقكِ النيل. عندما كنتَ تجلس على ضفتِهِ وتلقي أسراركِ الصغيرة في بئرهِ العميق. كنت موقناً ساعتها أن النيل سيكتم سركِ، لن يخونكِ أبدًا؛ لكنكِ كنتِ صغيرًا أحمقًا. تنهضُ، تجري، تلهو، تسابق الأمواج، وتنسى الحقائق.

تستمرُ في السير قدمًا للأمام. تريد الإمساكِ بها بإصرارٍ طفل. يداكِ ممدودتان للأمام كالأعمى، وفوق عينيك مندبيلها البنفسجي، وفي أنفكِ لا تزال تسكنُ رائحة التوت. تدورُ حول نفسك في دوائرٍ متقاطعة؛ ترقصُ رقصة صوفية خالصة. تتوقف حين تتعب لالتقاط أنفاسكِ. تخشى أن تكون محض طيف، ترفعُ عن عينيك غشاوتها، وتفكرُ. تقول: ربما أحببتها حد الفناء فيها أو حد خلودها فيكِ. تشكُّ في إجابتك. تتساءل ماذا تعرف أنت عن الحب؟ تسمع صوت أبيكِ الشيخ يأتيكِ ليحيب: الحب من اختار اسمكِ وقدركِ. ثم يصمتُ، ينشغلُ عنكِ كالمعتاد بالتسبيح وذكر الله.

لكنكِ لم تشعر قط بهذا الحب العميق لاسمكِ. تقول: ربما كذب والدي الشيخ. تستغفرُ الله ممَّا تقول. لكن استغفارك لا يقلل من غضبك. ذلك الغضب الذي كاد يقتلك حين اختفى والدكِ فجأة من البيت. يومها استيقظت ليلاً على نوحٍ كئيب، وحين فتحت عينيك هاجم الظلام روحكِ. لم ترَ شيئًا. كنت عائدًا من حلمكِ بليلي وروحكِ نصف غائبة عن العالم؛ غائبة عن الفهم. تساءلت كيف يتحولُ الحلم فجأة إلى كابوس؟ ولم تدركِ حينها أيها المسكين أنك فقط عدتَ إلى الواقع.

يومها هل أشرقت الشمس؟ أو هل رأيتَ الفراشات؟

نسيتَ موعدكِ مع ليلي عند النيل، أخذتكم الكارثة الأولى فأسكرتكم. ولمَّا علمت سر اختفاء أبيكم الشيخ قلت: كيف؟ وهو الذي أحبَّ عبد الناصر حد الجنون، وها أنا هو الدليل. فكيف يعتقل؟ كيف؟ شعرت أن الجميع ينظرُ إليك بغضبٍ. تمنيت أن تتعرى من اسمكِ فتمضى عاريًا في الطرقات. لكن كيف تفعل ذلك؟ وكيف يفعل عبد الناصر هذا؟ ألا يعلم ماذا سيحدث؟

هذا هو الحب الذي أخبركِ به والدكِ الشيخ وكان مؤمنًا بمَا يقولُ حتى بعدما عاد إلى البيتِ بمرضِ الرعاش، ظل مؤمنًا بعبد الناصر والأحلام والغد. لم يضعفَ المرض والسجن قلب الشيخ. وقتلتم أنتم: يكفي أنه عاد، مريضًا لكن عاد. فلم تمضِ أيامٌ حتى مات.

هل شعرت بموتِ الشيخ؟ هل قبلت جبين الشيخ قبل الدفن؟

بالطبع لم تشعرَ بموت أبيكِ. كنت غائبا ضائعًا في تيهكِ الأزلي. لا تزال صورة ابنة عمكِ عالقة أمام عينيك. تقول "كيف؟"، وتصرخ، تصيح، تستغيث. لكنها الحقيقة. تساءلت حين رأيت جثتها: كيف تحول

جمالها إلى هذا القبح؟ وجهها الجميل كيف أصبح منتفخاً ومقرزاً؟ وبياضها الدافئ الخجل كيف تحول إلى هذا اللون العدمي الأزرق؟ أجبتهم ببساطة: هذا ليست ليلي. أنكرتها وتبرأت منها كما الحياة. فما أفساك. حاولوا أن يقتنعوك أنها غرقت في النيل فصعبوا عليك الأمر أكثر. قلت: كيف يقتلها النيل؟ وتذكرت أنها كانت تنتظرُك يومها فلمت أبيبك على الغياب ولمت عبد الناصر على القهر ولمت النيل على الخيانة. كل شيء.. كل شيء تأمر ضدك.. حتى اسمك. فكيف تعجبت حين لم ترَ الفراشات يومها؟ وهل كانت تظهر إلا ليلي؟

واليوم. أراك. تقفُ على بعد خطوتين منها. تتأملُ جمالها وضوءها المشع من عينيها. ترى فيها ملامح ليلي فتيقنُ أنك تعشقُها بكل طفولتك. لا. ابتعد. ابتعد أكثر. اهرب. اهرب أكثر. حاول أن تهرب أكثر فأكثر. اخرج من المشهد. استيقظ يا جمال. استيقظ.. استيقظ.